المدارس وآثارها القومية والاجتماعية

بقلم عبد الحميد حسن

المفتش بالمعارف

من الأصول الثابتة التى لابد منها فى تكوين الأمم أن يتجانس أفرادها فى العادات ، وفى المظاهر القومية ، وأن تكون وحدة الاجتماع بينهم شاملة ، وأن يكون لهم من التقاليد ووجهات النظر والتفكير العام ، ما يجمع شتاتهم ، ويؤلف بينهم ، ويثبت دعائم حياتهم ، فيصبح للأمة من كل هذا طابع خاص ، يميزها عن غيرها ، ويبدو جليا فى مجتمعاتها وألعابها وملاهيها وأعيادها وحياتها المنزلية وفهمها للجمال والتنسيق وغير ذلك . وهذا هو الذى يحدد شخصيتها ، فالأمة كالفرد لها شخصية تنشأ عن مجموع مالها من صفات وتقاليد وميول وغيرها من المقومات وإنا لنرى هذه الشخصية فى الأمم الراقية متجلية فى مرافق حياتها ونظمها ومختلف شؤونها .

هذه الشخصية وليدة عوامل شتى تتحكم فى جميع الأفراد تحكما قهريا فتؤثر فيهم جميعا بدرجات متفاوتة ، ولكنها تترك فيهم مظاهر متقاربة .

ومن بين هذه العوامل عامل ننظمه بأيدينا ، ونتخذه وسيلة لصقل أبناء الأمة وتوجيههم وجهة قد يكون فيها الخير وتكون وسيلة للتقريب بينهم فى الصفات العامة وقد تكون سببا من أسباب التجافي والتباعد وإيجاد الفروق . ذلك العامل هو المدرسة .

ظلت المدارس أحقابا وليس لها غايات اجتماعية ولا مقاصد قومية ولم يكن الغرض الأساسى منها يعدو الدرس والتحصيل وقراءة الكتب وحل المعضلات العلمية أو الابتكار الفنى فى شكل من أشكاله . ولكن الحال الآن على غير هذا من سمو الغاية وشمول الغرض . فالمدرسة اليوم لها إلى جانب الغايات التعليمية

والتثقيفية غايات أخرى أنبل وأقوى فهى من أمتن دعائم الاصلاح الاجتماعى والخلقى والقومى وهى مجتمع صغير يمد المجتمع العام بعناصر الحياة الصالحة ويعاون المصلحين على بث صفات الخير وتنشئة الأفراد على المثال الذى يريدون، وهى لهذا من خير العوامل فى البيئة ومن أقوى المؤثرات فى التقريب بين أبناء الأمة فى المشاعر والطباع والعادات والتفكير ونظم المعاملة وسائر شؤون الحياة. ورب قائل يقول كيف تؤثر المدرسة فى البيئة مع أن المعروف أن المدارس والمناهج ونظم التعليم إنما تستمد من البيئة وتتأثر بها وتتمشى مع مظاهرها وأن المدرسة إن هى إلا صورة للمجتمع وما فيه.

ولسنا نجادل فى هذا فالتفاعل بين المدرسة والمجتمع مشترك، والمدرسة وإن كانت أثراً من آثار البيئة من أقوى العوامل فى نشر ما فى البيئة من خصائص وما للأمة من مقومات ووسيلة لتوحيد الآثار التى توحى بها البيئة (ولما يضع أساسه المصلحون) ولتغذية جميع الأفراد بكل هذا، فهى منبت لقويم العادات وأمثل نظم الحياة وهى المزرعة للمظاهر المكونة للأمة وهى كالشجرة تستمد الغذاء والحياة من البيئة التى تغرس فيها ثم تغمرها بوارف ظلها وتفيض عليها من يانع ثمرها ودانى قطوفها.

ولهذا كانت آمال المصلحين فى مدارس اليوم عظيمة فهى التى يرجو منها المجتمع أن تهيئ الأفراد لخدمته وتعدهم لفهمه وللحياة الصالحة فاذا أحسنت المدرسة هذا الاعداد أخرجت أفراد تنشأ من مجموعهم أمة متماسكة لها شخصيتها القويمة وطابعها المتجانس. أما إذا تفرقت وسائل الاعداد وضاقت الغاية ولم يكن فى المدرسة الغذاء القومى والاجتماعى المشترك فإنها لا تكون عونا للمجتمع ولا تنتج إلا طبقات متفرقة لا تجانس بينها فى القومية ولا فى حياتها الاجتماعية ولهذا أثره فى قيادة الأمة وتفاهم أفرادها وسهولة المعاملة بينهم. ولعلنا نلمح شيئا من هذا فى بيئتنا المصرية فالفروق كبيرة بين الطبقات وبين طوائف المتعلمين.

وللمدرسة أثر آخر فى قيادة الأمة ذلك أنها عون للحكومة وللمصلحين على طبع الشعب على النظام الذى يريدون وعلى تعميم الارشاد الذى يودون نشره،

وعلى تثبيت ما يقصدون إلى غرسه فى الأفراد من عادات صحية وخلقية واتجاهات فى التفكير ونظم الحياة والمعاملات المادية والاجتماعية وغير ذلك مما يملأ قلوب من يريدون خير الشعوب ورقيها.

يقول أحد الساسة : « إن القابض على زمام المدارس ومقاليد التربية يستطيع أن يكون الشعب كما يريد وأن يغير اتجاهه وحياته فى فترة من الزمن ». ولا أعتقد أنه قصد بذلك التعليم فحسب أو القراءة وحدها، فالقراءة ليست كل شىء فى تكوين الشعوب، والأثر القوى فى ذلك إنما يرجع إلى الاعداد الخلقى الصحيح والارشاد الحيوى الشامل وتثبيت دعائم الحياة الاجتماعية وغرس المظاهر الوطنية والقومية إلى غير ذلك مما يخلق الأمم خلقا جديدا ويوجهها الوجهة الصالحة.

إن القراءة إنما هى وسيلة اصطلاحية للتفاهم وعون للاستزادة من الثقافة ونشرها، ولكنها ليست بالشىء الكبير فى إعداد الأفراد للحياة وطبعهم بالطابع الذى يتطلبه بقاء الأمة ورخاؤها، وإن الأثر الذى تحدثه المدرسة فى الأمة لا ينبع من مجرد القراءة والكتابة ولا من التكوين العقلى وحده أو من التقدم العلمى فحسب، فقد ظلت المدارس فى جميع العصور الغابرة تعلم القراءة والكتابة وتكيل الحقائق العلمية، غير أن هذا لم يصل بنا إلى ما ينشد المصلحون ولم يمنع من الشكوى من قصور الشعب وضعف المجتمع من وجوه شتى.

ولست أريد بهذا أن أغض من قدر التعليم اللفظى والاستزادة من المعارف ولكننى أريد أن أقرر حقيقة أصبحت اليوم ثابتة وهى أن مدارسنا إذا اقتصرت على القراءة والكتابة وعلى التعليم وحده لم تستطع أن تؤدى رسالتها للمجتمع ولم تقم بالواجب للشعب المصرى.

ان المجتمع المصرى ولا سيما فى الريف يعوزه كثير من التقويم، وجمهور الأمة تغمره الخرافات وبغيض العادات، ومظاهرنا القومية والاجتماعية تحتاج إلى قدر كبير من الاصلاح. والمدارس هى مقعد الآمال فى كل هذا، فهى العامل الذى نستطيع أن نسيطر عليه والبيئة التى نغرس فيها أصول نهوضنا فتثمر الثمر الذى نرجو منه الخير للبلاد.

ولكن الوصول إلى هذه الغاية إنما يتحقق إذا جعلنا المحور الذى تدور حوله المدرسة هو قيادة التلاميذ إلى حياة منظمة مفيدة لهم وللمجتمع أما القراءة والكتابة والتعليم الكتابى فانه يجىء تبعاً لذلك ومكملا له . وهذا هو ما أريد أن أعرض له بايجاز :

***

إننى أترك جانبا عواصمنا ومدننا الكبيرة التى تزخر بوسائل النقل المختلفة وتكتظ بالحوانيت والمقاهى والملاهى وتتمتع بمظاهر النعيم التى نقشتها المدنية الحديثة . أترك كل هذا وأتجه إلى المدن المتواضعة وإلى الريف وما فيه من حياة فطرية وعادات ونظام وخلق .

أترك هذه العواصم جانباً فهى مصطبغة بالمدنية الحديثة صبغة ظاهرة إلى حد ما ، وأتجه إلى الريف وشبهه ففيه جمهور الأمة وعليه معقد الآمال فى النهوض الحقيقى للبلاد فاذا ارتقت الحياة فى الريف ففى ذلك الرقى الشامل . أما الزخارف التى نراها فى مدننا الكبيرة فليست دليلا على رقينا الحقيقى وليست إلا صورة سطحية للمدنية الأوربية التى اصطبغت بها مظاهر حياتنا لاصميمها . أما الريف والأحياء الوطنية فلا تزال وراء المدنية والفرق بين حياتها وحياة المدن شاسع .

أترك كل هذه جانبا وأتجه إلى الريف وأهله فهم فى حاجة إلى النهوض فى حياتهم وتفكيرهم ونظام منازلهم وصحتهم وملابسهم ومسراتهم ومعاملاتهم وجميع مرافق حياتهم .

ثم أتجه إلى المدارس فأستمد منها الاصلاح ، فالمدرسة فى بلادنا يجب أن تكون المركز الذى يسطع منه ضوء الحياة وهى التى تفيض بالإرشاد على تلاميذها وعلى القرية وأهلها وعلى البيئة ومن فيها . والمدرسة فى الريف يجب أن تكون ميداناً لإرشاد الجمهور إلى أقوم سبل الحياة وأن تكون مهدا لتنمية الصفات القويمة وموطناً للحياة التى نرجو أن يسير على نهجها سكان القرية لتصلح حالهم ويسايروا العالم فى رقيه ، فى حدود لاتخرجهم عن الحياة الريفية الطبيعية ولا تنغمس بهم فى تيار الزخارف المنتشرة فى المدن .

ولعلنا إذا وصلنا إلى هذا الاصلاح نكون قد أكسبنا الريف من نضارة الحياة الطبيعية الصافية السليمة المنظمة مايحببه إلى قلوب المتعلمين والاثرياء الذين يفرون منه نفوراً من نظامه وركود حياته .

***

ولعلك تسأل أيها القارئ : وأى نوع من المدارس أو النظم التعليمية يحقق هذا ؟ وجوابى هو أن المدرسة التى أريدها ليست على نمط مدارسنا الحالية التى تعلم فيها العلوم وتدرس المواد وتعد التلاميذ للامتحان ، بل هى نوع متواضع يعد للحياة المتواضعة النافعة أو هى حقل للعمل وللحياة . وسأشرح نظامها وأذكر إلى جانب ذلك بعض المقترحات ووجوه الإصلاح التى أرى فيها قسطا من الخير .

وسأحصر ملاحظاتى فى أشياء ثلاثة وهى :

(١) مدارس الحقول

(٢) الإرشاد المدرسى والسمر القومى

(٣) المكتبات والمتاحف والمعارض

***

(١) مدارس الحقول

ان المدارس الالزامية والأولية الحالية إنما ترمى إلى محو الأمية مع تزويد المتعلم بقدر ملائم من الثقافة المحلية . ولست أريد أكثر من هذا فى المدرسة التى أقترحها ولكننى لا أريد أن يكون هذا القدر التعليمى هو الأساس فى المدرسة . وإنما أريد أن تكون المدرسة فى صميمها مزرعة وأن يكون الغرض الأساسى منها هو الحياة المنظمة التى يحتذيها سكان الريف ويذيعها البنون والبنات بعد انتهائهم من المدرسة وعودتهم إلى أسرهم وإلى حياتهم فى القرية .

تكون المدرسة فى أساسها مزرعة والعمل فيها يكون عمل الريف فى الحقول ، أما القراءة والكتابة فتجىء تبعا .

وهذه المدارس تكون داخلية بعضها للبنات ، وبعضها للبنين ، وتبنى فيها المساكن

على نظام متواضع وتؤثث بالأسرة والمقاعد المتخذة من جريد النخل وتجهز بوسائل النظافة على الطرق الصحية فى أيسر مظاهرها .

وفى مدارس البنات يكون الأساس أن تعيش البنت عيشة نظيفة منظمة قليلة النفقة وأن تعمل ما تعمله الريفية فى الحقل وفى المنزل . فتتعهد الدواجن وتحلب المواشى وتعمل الجبن والزبد وأنواع المربيات والمخللات ، وتستخرج أنواع العطر ، وتقوم بما يلائم من الصناعات الزراعية .

وإلى جانب هذا تتعلم الخياطة وتفصيل الملابس الريفية ، وعمل الأثاث من جريد النخل ، وتنظف ملابسها وحجرتها ، وتسير فى حياتها على القواعد الصحية .

ولعل أحدث أصول التربية ترى فى هذا قدرا من الثقافة نافعاً وكافياً ، وقسطاً لابأس به من التعليم والانتفاع بمشاهد الطبيعة ، إلى جانب الاعداد العملى للحياة الريفية . هذا إلى العادات النافعة التى تنطبع فى نفس الفتاة ، حتى إذا أتمت البنت هذه المرحلة وعادت إلى أسرتها كانت عونا على بث ما غرس فى نفسها من العادات ونظم المعيشة فى قومها وعشيرتها .

ومما يزيد أثر هذه المدارس الريفية ، أن تنظم فيها محاضرات سهلة إرشادية فى الصحة والتهذيب ، ومحاربة الخرافات وأشباهها من العادات السيئة محاربة عملية . ويدعى إلى هذه المحاضرات نساء من القرى من أمهات التلميذات وقريباتهن .

وعند ذلك تسنح الفرصة لمشاهدة نظام المعيشة فى المزرعة ، وما تتبعه البنات من عيشة صحية وحياة منظمة .

وتنشأ للبنين مدارس على هذا النمط مع التعديل بما يلائم حياة الريفى وعمله .

وليكن فى هذه المدارس طائفة من الأناشيد الريفية المختلفة الخاصة والعامة فى وصف حياة الريفى وما يحيط به من مناظر ، وفى الاعتداد ببيئته ، والاعتزاز بقوميته والفخر بما تنتج أرضه وما تدر جهوده على البلاد من خير .

وإن مدرسة واحدة من هذا النوع سيكون لها أثر حيوى عظيم . وهذا فى اعتقادى أجدى وأقل نفقة وأعظم من القرى النموذجية التى أنشأتها أو تعتزم

إنشاءها بعض السلطات ، فإن هذه المدارس ستوقظ فى النفوس الرغبة فى إنشاء المساكن والقرى على الطراز الصحى وستكون وسيلة لإرشاد الريف وأهله إلى أقوم السبل للحياة الصالحة .

وإذا كانت وزارة المعارف قد شرعت فى تحويل بعض المدارس التحضيرية للمعلمين إلى مدارس صناعية وزراعية فإن تحويل بعض المدارس الإلزامية والأولية إلى هذا النوع من المدارس الريفية أو الحقول العاملة سيكون عظيم النفع من الوجهتين الاجتماعية والقومية .

أما نفقات هذه المدارس فليست جسيمة فإنها ستكون مصادر إنتاج وثروة تعوض بعض ما ينفق عليها أو جله وقد يكون الربح المالى منها مشجعاً .

هذا إلى أن الأغنياء والجمعيات الخيرية التى تنفق جانبا من خيراتها فى التعليم سترى أن هذا النوع من المدارس أنفع للبلاد وأجدى على جمهور الأمة فتخصه بنصيب وافر من معونتها .

(٢) الإرشاد المدرسى والسمر القومى

كانت بعض المقاهى البلدية منذ عهد ليس بالبعيد عامرة بالسمر الأدبى الشائق الذى يجتذب قلوب الجماهير من عامة الشعب ، فكنت ترى فيها « الشاعر » ربابته يلق أخبار أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة وغيرهما ، وتسمع « المحدث » يتلو قصة سيف بن ذى يزن أو قصة عنترة أو نحو ذلك ، والجمهور حوله صامت يملأ قلبه الشغف ، وتهز نفسه حوادث البطولة ومظاهر المروءة ، وتطربه الخلال الكريمة ويبعث القصص الشائق فيه نبيل العواطف .

ولقد كان لهذا النوع من السمر أثره الحميد فى التهذيب وفى الثقافة ، فكثيرا ما كنت تسمع من العامة بعض الأشعار والأمثال التى استرعت نفوسهم تجرى على ألسنتهم مقرونة بالاعجاب والسرور .

وكان المرحوم الأستاذ « براون » المستشرق الانجليزى عظيم الاعجاب بهذه

المنتديات القومية الوطنية وبهذا « الشاعر » الذى كان يلقى هذا القصص فى قهوة وطنية عند بيت القاضى بالقاهرة ، وكثيراً ماكان يغشاها عند زيارته لمصر ، وقد نقل عنه بعض الأسطوانات وكان كثير الاعتزاز بها يطرب بها زائريه فى كمبردج على الحاكى ، ولقد كان أسفه عظيما حينما زار مصر ورأى آثار هذا السمر القومى آخذة فى الاضمحلال .

هـذا السمر القومى نستطيع إحياءه فى الريف فى الأوقات الملائمة ، ويكون منبعه المدرسة الريفية يجتمع الجمهور الريفى فى ساحتها لسماع القصص النافعة القديمة والحديثة التى يسطرها المصلحون والعارفون بطبائع الشعب ومواطن دائه الخلقى والاجتماعى وبأنواع الدواء .

يسطرون ذلك فيجعلونه فى ظاهره سلوة ولهواً ، وفى باطنه الاصلاح والتوجيه القومى والاجتماعى والأمثلة الصالحة للحياة الرشيدة وللخلق الفاضل .

وإذا ألف الجمهور السعى لسماع هذا السمر تنتهز فرص اجتماعه فيلقى عليه فى خلال ذلك الارشاد النافع فى شؤون الحياة الصحية والوطنية وغير ذلك .

وإذا كانت وزارة المعارف قد بدأت تعنى بالاذاعة فى المدارس وتنظم موضوعاتها ، فما أشد حاجة الريف وأهله إلى شىء من هـذا يذاع على مسامعه ولكن لا على أمواج الأثير ، بل على ألسنة المرشدين والمصلحين ، واعتقادى أننا سنجنى من هـذا السمر خيراً عظيما للشعب فى حياته وعاداته وخلقه ونهوضه وثقافته .

(٣) المكتبة والمتحف والمعرض :

وليكن إلى جانب إحدى المدارس الريفية مكتبة ومتحف ومعرض .

أما المكتبة فلمنفعة التلاميذ وفائدة الجمهور يؤمها من يريد القراءة أو الاستعارة بشروط تنظم لذلك .

وأما المتحف فانه يضم بعض النماذج التاريخية المحلية وبعض الصور التعليمية والقومية كصور العظماء والمناظر الطريفة فى البيئة أو غيرها ، ونموذجاً بارزاً

للقرية وما يجاورها ، إلى غير ذلك مما يزيد الثقافة ، ويصور للسكان قريتهم فيعظم شأنها فى نظرهم ويزداد اهتمامهم بها وحنينهم إليها وشغفهم بخيرها ونهضتها .

وأما المعرض فإنه يحوى طائفة من منتجات البيئة ونماذج من المصنوعات الوطنية فى جهات القطر وما اشتهرت به بلادنا المختلفة .

ولهذه الأشياء الثلاثة آثار شاملة تشجع على الاهتمام بانشائها . وإن النابهين وذوى الرأى والأثرياء ممن أنبتتهم القرية وأظلتهم بسمائها وغذتهم بخيرها سيجدون من الوفاء والفخار أن يكون لهم فى كل هذه الأعمال الجليلة آثار محمودة فتتحرك لها هممهم وتنشط أريحيتهم .

* * *

هذه ملاحظات جالت بالخاطر أعرضها للنظر والتمحيص ، ولعلها تثير الاهتمام بأنواع جديدة من المدارس العاملة النافعة . ؟

عبد الحميد حسن